

رأس المال الديني وتمتية المجتمعات

خالد أبو دوح *

لقد تم استخدام مفهوم رأس المال Capital في النظرية الاجتماعية استخداماً رئيسياً وتاريخياً من قبل "كارل ماركس" لتقديم نظريته ونقده للاقتصاد السياسي، وحديثاً أفرزت النظرية الاجتماعية مناقشات جديدة حول الأشكال المختلفة لرأس المال، فهناك رأس المال الاجتماعي، والذي يشير إلى تلك الموارد الكامنة في العلاقات الاجتماعية وشبكات العلاقات، والتي تكون مفيدة للأفراد، وتسهل لهم الفعل عبر توليد الثقة وتأسيس الالتزامات والتوقعات، وخلق واحترام المعايير، وتشكيل الاتحادات والجمعيات (1).

وذهب "بورديو" Bourdieu إلى أن رأس المال الثقافي Cultural Capital هو معرفة وإدراك الثقافة الجمالية المتميزة وذات المركز الاجتماعي، مثال الفنون الرفيعة، والثقافة الأدبية والقدرة اللغوية (2). هذا بخلاف أشكال أخرى لرأس المال، مثال: رأس المال البشري، ورأس المال الاقتصادي، ورأس المال الرمزي الذي استخدمه "بورديو" أيضاً ليشير به إلى الحالة التي يتخذها أي شكل من أشكال رأس المال في حالة الاعتراف به وإدراكه من قبل السياق الذي يتواجد فيه.

ومن خلال هذه الدراسة يحاول الباحث أن يقدم مقاربة جديدة وأولية لمفهوم رأس المال الديني Religious Capital كمفهوم وأداة تحليلية جديدة في مجال النظرية الاجتماعية، والكشف عن مدى إمكانية تطوير هذا المفهوم نحو الاستفادة منه في تمتية المجتمعات العربية.

أولاً: رأس المال الديني...نحو مقاربة المفهوم

في التعريف الأساسي لرأس المال يرى "نان لين" Nan Lin أن رأس المال يتشكل من استثمار الموارد في إطار السوق، طلباً للحصول على عائدات محددة، وعلى هذا النحو يتشكل رأس المال من الموارد حينما يتم استثمار هذه الموارد أو تعبئتها في اتجاه السعي للحصول على الربح، باعتباره هدفاً للفعل، في إطار ذلك يعبر رأس المال عن الموارد وينمو من خلال عمليتين: في إطار العملية الأولى يتم إنتاج الموارد وتحويلها كنوع من الاستثمار، وفي العملية الثانية يتم نقل الموارد المنتجة أو المحولة إلى ساحة السوق للحصول على الربح، وهو ما يعنى أن رأس المال في جانب منه يعد حصيلة عملية الإنتاج والذي يعنى إنتاج أو إضافة قيمة جديدة إلى الموارد القائمة فعلاً، وفي الجانب الآخر يعد رأس المال متغيراً سببياً في عملية الإنتاج (حيث يتم تبادل الموارد من السوق لأجل توليد الربح) وقد اعتبرت هذه الجوانب عمليات لأن الاستثمار والتعبئة يتطلبان الوقت

والجهد(3).

وإذا كان رأس المال بحد ذاته يعنى أن بنية تتشكل من القيم، وأن أعمال هذه القيم أو استثمارها قد يكسب أو يخسر قيماً، وأن هذه القيم تشكل تراكمًا وزيادة معدلات التراكم يعنى زيادة معدلات القوة بالنسبة لرأس المال، وأن قيمة رأس المال ذات طبيعة تبادلية بالأساس. على هذا النحو فإننا إذا تأملنا الدين في أي مجتمع من المجتمعات فسوف نجده يشكل رأس مال، يستند إلى موارد ومصادر طبيعية يعاد إنتاجها، وتشبع الحاجة إلى الأمان بالنسبة للإنسان والمجتمع، بالإضافة إلى ذلك فقد يستثمر فاعلية الدين في الحفاظ على الوضع القائم، أو تستثمر المعاني الدينية في تحقيق أهداف اجتماعية أو اقتصادية للمجتمع، تساعد في توليد قيم مضافة، فالدين الذي ناضل من أجل الحصول على استقرار المجتمع قدم قيمة مضافة لأوضاع المجتمع، والدين الذي ساعد بطاقته المعنوية على انتصار المجتمع في حرب، قدم قيمة معنوية ومادية مضافة إلى رصيد المجتمع، والدين الذي يشكل الضمير الفرد يجعل الإنسان المؤمن مكرسًا لعمله باعتباره رسالة، إنما يعمل على زيادة الإنتاج ويولد قيماً مضافة، لذلك اتجهت المجتمعات التي امتلكت وعياً بذلك إلى الدين باعتباره رأس مال يولد قيماً مضافة تساعد على تأكيد قوة المجتمع وبأس مناعته(4).

أما "جيفريس" Jeffries فيؤكد على القيم التي يضيفها الدين كرأس مال من خلال قوله بأن سبب وجود الدين داخل المجتمع البشرى يكمن في أنه يحقق وحدة المجتمع، من خلال أنه يمد الأفراد بمجموعة من القيم والغايات المشتركة ما بين البشر(5). وكما يشير "على ليلة" إلى أنه من الممكن أن نستكشف البدايات الأولى للتعامل مع الدين كرأس مال في التنظير الذي قدمه "ماكس فيبر" فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه الدين في نشأة النظام الرأسمالي(6).

وإذا ما كان كل من "ماكس فيبر" و "على ليلة" قد أكدا على أن الدين يمثل رأس مال هام على نطاق المجتمعات القومية، فإن الباحث يؤكد على أن الدين يمثل رأس مال هام على مستوى الأفراد خاصة في سياقات المجتمعات النامية التي تقف على هامش الحداثة، وهنا يتألف رأس المال الديني Religious Capital من درجة حيازة وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية، وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية يشير إلى درجة تعلم الفرد واكتسابه للمعرفة والمهارات والشعائر الخاصة بدين معين(7).

ويعرف "إناكون" Iannaccone رأس المال الديني بأنه المهارات والخبرات الخاصة بعقيدة الفرد، ويتضمن أيضاً المعرفة الدينية والإحساس بالألفة مع شعائر العقيدة(8). ويتم إنتاج ومراقبة رأس المال الديني داخل نظام التعليم الديني الرسمي أو الغير رسمي، إن رأس المال الديني هنا سلعة واسعة الانتشار يتم التحكيم فيها عن طريق نماذج معقدة للإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك، ليس هذا فحسب بل إن رأس المال الديني يمثل نوع وشكل قيم فعال، لأنه باستثماره الجيد يمكن أن يحقق للفرد تقدماً اجتماعياً،

واقتمادياً، ويمكن التأكيد على ذلك من خلال النظر إلى العدد الهائل من القادة الدينية المنحدرين من طبقات عليا ودنيا(9). أو من خلال النظر إلى الدعاة الجدد الذين ينتشرون في جميع الدول العربية.

ورأس المال الديني مثل الأشكال الأخرى من رأس المال قابل للتحويل أو قابل للخضوع للعملية التي أطلق عليها "بورديو" Bourdieu مصطلح تدوير رأس المال، فمثلاً يمكن تحويل رأس المال الديني إلى رأس مال اقتصادي، أو إلى أي شكل آخر من أشكال رأس المال، كما أنه يمكن توريث رأس المال الديني ونقله من جيل لآخر(10).

وتعكس المناقشات النظرية حول مفهوم رأس المال الديني خلاف حول ما إذا كانت عملية تكوين وتراكم رأس المال الديني لدى الأفراد ترجع إلى مدى إقبال الأفراد على تعلم الثقافة الدينية والالتزام بأداء الفرائض والشعائر المرتبطة بالدين، أم أن عملية تراكم وتكوين رأس المال الديني ترتبط بالبنيات الاجتماعية ذاتها(11).

وبناء على ما سبق، يمكن التأكيد على أن رأس المال الديني يشير إلى درجة حياة وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية، من خلال تعلم الفرد للمعرفة والمهارات والشعائر الخاصة بدين معين، سواء كان هذا التعلم بشكل رسمي من خلال التعليم الديني، أو بشكل غير رسمي، ويعتمد الفرد على ما يحوزه من رصيد في تدوير ومبادلة هذا الرصيد إلى أشكال أخرى من رأس المال، وذلك بهدف تحقيق المنافع المختلفة.

ثانياً: رأس المال الديني بين المجال العام والمجال الخاص

يرتبط مفهوم رأس المال الديني بإشكالية هامة، هي موقع رأس المال الديني فيما يتصل بالمجال العام، والمجال الخاص، وهذا الأخير يعبر عن العالم الخاص بالفرد داخل حياته الخاصة، وقناعاته ومبادئه الشخصية، أما المجال العام فهو أرض الجدل والنزاع، إنه العالم المفتوح على عالم المجالات العامة المتنافسة(12).

وبناء على التحديد السابق لمفهوم المجال العام، والمجال الخاص، يطرح الباحث التساؤل المرتبط بموقع رأس المال الديني من هذين المجالين وفي هذا السياق يزخر الفكر السوسيولوجي بالعديد من المقاربات التي اهتمت بتحديد طبيعة العلاقة بين الدين والمجتمع، خاصة في المجتمع الغربي، فقد ذهب "برجر" P.Berger و "لوكمان" Lukman إلى أن التحولات الاجتماعية في المجتمع الحديث تجعل الدين يتوارى إلى المجال الخاص، خاصة في ظل سيطرة المؤسسات السياسية والاقتصادية على المجال العام Public Sphere.

ونظر آخرون إلى موضوع الدين في الحياة المعاصرة من زاوية علاقة الدين بالحدثة، فالحدثة تعد مشروعا عقلانياً، ومن ثم فإن المجتمع الذي ينتقل إلى مجتمع حديث يخبر عمليات تباين تجعل الدين يتوارى إلى الحيز الخاص، فالمجتمع الحديث لا يعرف ديانة بعينها ولكنه يسمح بالتعددية الدينية، ومن ثم لا يمكن لديانة تقليدية بعينها أن تسيطر على

المجال العام، ومن هنا يصبح الدين مسألة خاصة. وهذه العملية تم توصيفها بأنها
خصخصة الدين (13) (Privatization of Religion).

ومن خلال محاولة الكشف عن مدى تجسد مثل هذه الأفكار داخل التكوينات الاجتماعية
المختلفة، يمكن التوصل إلى فكرة محورية هامة ألا- وهي أن تلك الصورة التي ترسمها
هذه الأفكار السابقة لم تصل إلى حالتها المثالية في أي من دول الأرض، فالحضارة
الغربية نفسها تأسست على فكرة دينية، ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى البروتستانتية
كأحد التفسيرات الدينية التي ارتبطت ارتباطاً كبيراً بالمشروع الرأسمالي الغربي،
وبالمشروع الحدائي الغربي، ويمكن الإشارة أيضاً إلى بعض الأحزاب السياسية في
أوروبا والتي تصبغ نفسها بالصبغة الدينية، كالحزب الاشتراكي المسيحي في ألمانيا، بل
وأكثر من ذلك إشارة "على ليلة" إلى أن اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية في السنوات
الأخيرة نحو العالم العربي والإسلامي في أعقاب أحداث سبتمبر 2001 يستند إلى مرجعية
دينية (14).

وبالنسبة للعالم العربي فإن الدين أيضاً ظل لصيقاً حاضراً كموضوع في حياة الناس، كما
ظل حاضراً في الميدان العام لا يغادره، بل يحاول أن يسيطر عليه وأن يسيره، ويذهب
"أحمد زايد" إلى أن هناك عدة عوامل أسهمت في ذلك منها (15):

1- أن الإسلام كدين سماوي لا يفرق بين الميدان العام والميدان الخاص، فالإسلام لا
يفصل بين الدين والدنيا، وينظر إلى العقيدة الدينية على أنها الإطار المنظم لحركة الحياة
وأهدافها.

2- أن الاجتهادات والتأويلات المعاصرة للدين لم تستطع أن تجد وسيلة للفصل بين
حقوق العقيدة وحقوق السياسة، بل يمكن القول إن العكس هو الذي حدث، فجعل هذه
الاجتهادات والتأويلات اتجهت نحو السيطرة على المجال السياسي بدلاً من الابتعاد عنه.

3- وإن كانت النقطة السابقة تؤشر على عدم قدرة الدولة المدنية على تحقيق "نقاء
مدني" خالص، أو عدم قدرتها على أن تجد وسيلة لتحديد العقل الديني، فإن هذا الوضع -
ضمن ظروف إقليمية وعالمية- جعل الحقل الديني يتسع ويتشعب (16).

ثالثاً: رأس المال الديني كألية تنموية

يمكن التأكيد هنا على أن الدين في العالم العربي يمثل ثقافة كاملة فهو يعبر عن رؤية
للعالم، للطبيعة والوجود والإنسان، وهو كذلك لأنه يقدم تصوراً لبناء الاجتماع الإنساني
على نحو يغطي أحياناً أدق تفاصيل هذا الاجتماع اقتصادياً وسياسياً، وقيماً، واجتماعياً.
ليس يهيم إن سعت العقيدة الدينية إلى بناء أمة "روحية" -شأن المسيحية- أو إلى بناء أمة
"اجتماعية وروحية" -شأن الإسلام-، بل الأهم أنها قامت على تعاليم رسمت للمنتسبين
إليها تخوم الجائز وتخوم الممنوع، وقذفت في "روعهم" الجمعي مبادئ تحولت إلى قواعد
صارمة للفكر والسلوك، وأفكاراً تحولت إلى عقائد راسخة لا تقبل المراجعة في جانبها

اللاهوتي، حتى وإن كانت تقبل بعض التغيير في الجوانب المتصلة بميدان الاجتماع المدني(17).

كل ما سبق يؤشر على أن الدين في العالم العربي رأس مال قوى وفعال وراسخ في البنية الاجتماعية لهذا العالم، يتجسد داخل المجال الخاص ويشكل سلوك الأفراد وقيمهم ويحدد اتجاهاتهم كما يتجسد في داخل المجال العام ويحاول السيطرة عليه. لذلك فهو قوة فاعلة يمكن الاستناد عليها في تعبئة الأفراد في المجتمعات العربية نحو تنمية وتطوير هذه المجتمعات.

ورأس المال الديني -وفق الطرح السابق- لا يتجسد على مستوى المجتمع الكبير فحسب، ولكن يتجسد أيضاً داخل الجماعات، بمعنى أن الجماعات يمكن لها تكوين ومراكمة رأس المال الديني، ليس هذا فحسب بل الأفراد أيضاً يمكن لهم تكوين وحياسة رأس المال الديني ومراكمته، وتوجيهه نحو تحقيق منافع.

كما يمكن للمجتمع والأفراد تدوير رأس المال الديني، وتحويله إلى أشكال أخرى من رأس المال، وهذا التدوير يعمل على مضاعفة ومراكمة المنافع المرادودة من رأس المال الديني.

الحواشي

(* باحث من مصر.

Natalia Dinello, Forms of Capital : The Case of Russian Bankers,-
.1 International Sociology, Vol. 13, No.3, Sep.1998, P.293

George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, Vol. 1,Sage -2
.Publications, London, 2005, P.167

3- على ليلة، النظام العربي المعاصر... متغيرات الإصلاح وحدوده، دار الوافي للنشر،
القاهرة، 2006م، ص41.

4- المرجع السابق، ص42.

Vincent Jeffries, Social Stratification, Allyn and Bacon, London, -
5 1980, P. 101.

6- على ليلة، مرجع سابق، ص42.

Roger Finke, Kevin D. Dougherty, The Effects of Professional -7
Training : The Social and Religious Capital Acquired in Seminaries,

Bradford Venter, Spiritual Capital : Theorizing Religion With -8 Bourdieu Against Bourdieu, Sociological Theory, Vol. 21, No. 2, Jun. 2003, P. 158.

Ibid, P.168.-9

10- انظر في ذلك: - على ليلة، رأس المال الديني والقيمة المضافة للفعل الإنساني، مجلة الديمقراطية، العدد 26، مركز الدراسات السياسية الإستراتيجية، القاهرة، 2007م، ص42-43.

- Braford Verter, Op. Cit., P. 167.

William A. Mirola, Marian College, Review of "Religion as -11 Social Capital : Producing The Common Good ", Colwin Esmidt "ed", Sociology of Religion, Vol. 67, No. 3, 2006, P. 341.

12- خالد كاظم أبو دوح، تحولات المجال العام وعلاقتها بتبدلات رأس المال الديني في صعيد مصر، بحث مقدم إلى المؤتمر السنوي الحادي والعشرون للبحوث السياسية، "تحولات المجال العام في مصر.. تنامي الصراع ومستقبل التوافق الاجتماعي، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية"، القاهرة، 12-13 ديسمبر 2007م، ص8.

13- أحمد زايد، صور من الخطاب الديني المعاصر، دار العين للنشر، القاهرة، 2007م، ص186.

14- على ليلة، النظام العربي المعاصر، مرجع سابق، ص57.

15- أحمد زايد، صور من الخطاب الديني المعاصر، مرجع سابق، ص188-189.

16- "ذهب "بورديو" في هذا السياق إلى أنه في أي تكوين اجتماعي، كلما كانت البنية الموضوعية أكثر ثباتاً وأكثر قدرة على إعادة إنتاج نفسها وفقاً لشروط الأفراد، كلما أصبح امتداد مجال الدين أعظم".

انظر في ذلك:

-Bradford Verter, Op.Cit, P.154

17- عبد الغنى عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006م، ص138.

